# سياحة روحيّة إلى آثوس
# جبل الأرثوذكسيّة المقدّس
# ومعقل الحياة الرهبانيّة في اليونان

الأب سليم دكّاش اليسوعيّ*

عندما أسرّ صديقي الأستاذ أمين خوري في أُذني أنّ الحلم الذي يراوده منذ زمن بعيد هو زيارة جبل آثوس في اليونان[1]، قلت في نفسي: وهل يمكن أن نقتحم ذلك الجبل - الأسطورة، وأن تتمّ زيارة ذلك المكان البعيد الذي يتسوّر بالرهبة ويتزنّر بالتقاليد؟ وهل يمكن دخول أرض الحياة الرهبانيّة التي اعتنقها الرجال، والرجال وحدهم، منذ ما يقارب العشرة أجيال؟ وهل نستطيع التغلّب على مختلف المشقّات والمصاعب لنيل الإذن بالدخول؟ بعد الاتّصالات الحثيثة والمضنية بأصدقاء في مدينة تسالونيكي وبعض المتوحّدين القاطنين في الجبل المقدّس، وكذلك بفضل الدعم الآتي من الصلوات، أتى الفرج وانفرجت الأسارير، وحلّ النبأ بأنّ الأمور ترتّبت وأنّ الرحلة إلى آثوس عبر اليونان تقرّرت في الثاني

(*) رئيس تحرير المشرق.

(١) رحلة روحيّة تمّت بين الثالث عشر والثاني والعشرين من شهر آب ٢٠٠٠ إلى اليونان، في محطّات متعدّدة. وقد ضمّت إلى الأستاذ الصديق أمين خوري، الأستاذ نجيب نعيمه، ابن ابن أخي ناسك الشخروب الأديب الكبير ميخائيل نعيمه، وكاتب هذه المقالة. وكنّا قد قمنا معًا نحن الثلاثة برحلة إلى بلاد كَبدُوقية في تركيا وعدنا منها بذكريات لا تُنسى (راجع مجلّة المشرق، ٧٢، ص ١٥٥-١٧٨).

عشر من شهر آب من العام ٢٠٠٠، سنة اليوبيل العظيم، سنة الانتقال من قرنٍ إلى آخر. اليونان، بلد التقليد البيزنطيّ الأرثوذكسيّ المسيحيّ منذ أجيال، هي وجهتنا الرئيسيّة. محطّتنا الرئيسة الأولى هي مدينة تسالونيكي في الشمال، وجبل آثوس هو محجّتنا الروحيّة وقبلتنا الرهبانيّة، ومحطّتنا الثالثة هي منطقة أديار متيورا (Météora)، تلك الأديار المُثبتة على أنوف الجبال، إلى أن نقوم بزيارة مدينة دلفي وهيكلها الوثنيّ، والوصول إلى دير هوسيوس أوزيوس على مقربة من أثينا، عاصمة اليونان.

## تسالونيكي، مدينة القدّيس بولس

هذه المدينة العريقة بتاريخها وآثارها، الشاهدة على عظمة الإسكندر الكبير هي عاصمة منطقة مقدونيا وثانية مدن اليونان المهمّة. في هذه المدينة أعلن القدّيس بولس البُشرى في السنة ٥٠ وأُتيح له الوقت الكافي ليعمل في صنعة[٢]، إلّا أنّ اليهود ثارت ثائرتهم عليه ورحّلوه إلى خارج المدينة مع المبشّرين الذين كانوا معه. وترك بولس وراءه جماعة في أوّل نشأتها فقلق عليها، إذ إنّها كانت حديثة الإيمان، وقد كتب لها رسالتين لتثبيتها في الإيمان وحثّها على المثابرة. ونالت تسالونيكي من الاهتمام ما نالته على يد الأباطرة الرومان والبيزنطيّين، فتحوّلت إلى مدينة الأمبراطور الرومانيّ غاليريوس الذي بنى فيها قصرًا وقوس نصر يحملان اسمه حتّى اليوم، وإلى عاصمة ثانويّة تكثر فيها الكنائس والزخارف والموزاييك والرسوم، وكذلك برزت في تسالونيكي علامات الحضور التركيّ: فبقي الحيّ العثمانيّ شاهدًا على ذلك الاحتلال الذي دام أكثر من أربعة قرون.

وصلنا إلى تسالونيكي وقت الظهيرة، وبعد هنيهة في الفندق المضياف، أخذنا الطريق إلى كنيسة القدّيس ديمتريوس العريقة بين كنائس المدينة. فبحسب ما يقول التقليد، شُيّدت الكنيسة فوق الحمّام الرومانيّ الذي استشهد فيه القدّيس حوالى السنة ٣٠٣م. والواقع أنّ المؤمنين

(٢) راجع: رسالة بولس الأولى إلى أهل تسالونيكي، الفصل الثاني، آية ٩.

استخدموا في بناء المقام ما توفّر لهم من حجارة وبلاط ورخام من الحمّامات الرومانيّة. ولقد التهم حريق هائل الكنيسة، بحيث فقدت الكثير من جداريّات الموزاييك، ولقد استمرّت أعمال الترميم حتّى السنة ١٩٤٩، إذ تمّ اكتشاف قبر الشهيد تحت قاعدة الكنيسة، وهو قبرٌ كان قد تحوّل إلى مزار لأجيال عدّة قبل القرن الخامس عشر.

ومن كنيسة القدّيس ديمتريوس حيث غصنا في أعماق التراث البيزنطيّ، انتقلنا إلى كنيسة القدّيسة صوفيا التي لا تقلُّ شأنًا عن الأولى. فهذه الكنيسة مكرّسة للحكمة الإلهيّة، مثل زميلتها في القسطنطينيّة، وهي كنيسة ذات قبب متعدّدة، حُفِظت في سقوفها رسوم موزاييك أحدها من القرن التاسع يمثّل صعود المسيح إلى السماء، والثاني وهو شهير، يمثّل مريم العذراء حاملة الطفل من القرن الثاني عشر. وتكثر الموزاييك في هذه الكنيسة ومنها ما تمثّل الأمبراطور قسطنطين ووالدته الأمبراطورة إيرانه وأسقف تسالونيكي، البارّ ثاوفيلوس. وبعدها، زيارة بُرج المدينة القديم، ويسمّى البرج الأبيض وقد بناه الأتراك في القرن السادس عشر لمراقبة الشاطئ، إلّا أنّه تحوّل إلى سجن يسهل منه الفتك بالمعارضين غرقًا في خليج المدينة.

وبعد أن أدّينا التحيّة لنصب الإسكندر الكبير المقدونيّ، المتأمّب على حصانه لخوض معركة فتوحات جديدة، صعدنا الطريق باتّجاه المدينة العليا، فاستوقفنا من ناحية اليمين مبنًى داتريّ كبير علمنا عند زيارته أنّه كان مدفن الأمبراطور غاليريوس، وقد تحوّل بعد الحقبة الرومانيّة إلى كنيسة القدّيس جاورجيوس. وما يشار إليه في هذه الكنيسة هو مجموعة الموزاييك المذهّبة، المؤلّفة من رسم المسيح الضابط الكلّ، وقد نال الخرابُ منه كثيرًا، ورسوم الملائكة والرسل، وصعود المسيح إلى السماء، والنباتات والحيوانات المختلفة. ولا ننسى الإشارة إلى الكنيسة الجميلة تلك، ذات القبب المتعدّدة الأحجام، وهي تحمل اسم القدّيس بنديليمون وهي من القرن الرابع عشر، ففيها يحلو التأمّل الهادئ لما تثير في النفس من الخشوع والاتّضاع.

ونصل إلى المدينة العليا، فتتوارى عن الأنظار زحمة الأسواق التجاريّة، وتلوح في الأفق، شيئًا فشيئًا، أسوار المدينة التي بناها الأباطرة البيزنطيّون، ثمّ قوّى متونها السلاطين الأتراك، بحيث إنّ المدينة كانت حتّى السنة ١٨٦٩ مسوّرة من كلّ الاتّجاهات ولها أبواب لدخولها. فعلى مقربة من السور، يمكن زيارة كنيسة القدّيس داود وهي من نهاية القرن الخامس الميلاديّ، ولا تزال تلفت أنظار المهندسين المتخصّصين بفنّ العمارة البيزنطيّة، إذ إنّ هذه الكنيسة شيّدت بشكل صليب تعلوه قبّة عظيمة، رسم عليها موزاييك المسيح الجالس على قوس قزح، يحيط به الإنجيليّون الأربعة والأنبياء. وإذا كان هذا الرسم هو من القرن السادس، فإنّ بقيّة الرسوم التي تزيّن الجدران هي من القرن الثاني عشر، وتمثّل العماد وميلاد المسيح.

أمّا ما استوقفنا في ختام زيارتنا الأماكن المقدّسة في تسالونيكي، فهو ذلك المزار الواقع ضمن جدران المجمع المسكونيّ للدراسات اللاهوتيّة إلى جانب الأسوار القديمة[٣]. في ذلك المزار - الكنيسة الوضيعة، شاهدنا تلك الصخرة التي اتّكأ عليها القدّيس بولس في أثناء تبشيره وتأسيسه كنيسة تسالونيكي. ومنذ القرن الأوّل، حفظ التقليد الكنسيّ في تسالونيكي ذلك المكان ذخرًا للمؤمنين، يؤمّونه من كلّ حدب وصوب للصلاة قرب صخرة بولس التي اتّكأت عليها اليوم صورته. وتحلو الإقامة في ذلك المكان للصلاة مع جماعة المؤمنين المرتّلين صلاة المساء، وللدخول في عالم الشهادة للبُشرى التي كثّفت بولس وغيره من الرسل والتلاميذ الغالي والنفيس لإعلان الحقّ والقيامة.

ونجدّ في السير مرّة أخرى صوب ساحة المدينة الرئيسيّة حيث انتصب تمثال الفيلسوف اليونانيّ أرسطو (من القرن الرابع قبل الميلاد)[٤]

---

(٣) هو كناية عن كلّيّة لاهوت تابعة للبطريرك المسكونيّ الجالس على كرسيّ القسطنطينيّة.

(٤) أرسطو أو أرسطاطاليس (٣٨٤-٣٢٢ ق.م.) فيلسوف يونانيّ من كبار مفكّري=

معلّمًا ما توفّر له من الحكمة وما وراء الطبيعة. وقد علمنا لاحقًا أنّ أرسطو هو من مواليد بلدة غير بعيدة عن تسالونيكي هي ستاجيرا القديمة وستاڤرو الحديثة. وهكذا فإنّ تسالونيكي، بمعالمها وكنائسها القديمة وتماثيلها، تشهد على تاريخ عريق وعلى تقاليد باقية راسخة. ولا عجب أن يكون جبل آثوس هو الأسمى بين التقاليد، وقد بدأنا نشخص النظر إليه كي نرى ما ينتظرنا فيه من شهادات التاريخ.

## الجبل المقدّس، جبل الحياة الرهبانيّة الأرثوذكسيّة

صبيحة الثالث عشر من شهر آب، أعددنا العدّة للسفر إلى آثوس، جنوب مدينة تسالونيكي، فانتقلنا بالسيّارة إلى مدينة أورانوبوليس (مدينة السماء) التي على الحاجّ إلى الجبل المقدّس أن يتّخذها محطّة أخيرة له قبل أن يركب الباخرة - العبّارة التي تقلّه إلى ميناء دفني (Daphni) الرئيسيّ على ساحل جبل آثوس. فالطريق التي سلكتها السيّارة من تسالونيكي إلى أورانوبوليس فيها الكثير من المناظر الخلاّبة بين قرية وأخرى، وخصوصًا في تلك الخلجان التي تتجمّع فيها المياه ذات اللون الأزرق اللازورديّ، كخليج ستراتونيون. والمنطقة التي مررنا بها والتي يقع فيها آثوس هي بلاد خلقيديقية المكوّنة من ثلاث أصابع طويلة متمدّدة في بحر إيجه. الإصبع الأولى هي أرخبيل كاساندرا الأقرب إلى تسالونيكي، والإصبع الثانية هي سيتونيا، والثالثة هي أرخبيل جبل آثوس المطلّ على البحر الفاصل بين اليونان وتركيا. نصل إلى أورانوبوليس فنستعجل إلى مقرّ جرازات السفر إلى جمهوريّة جبل آثوس، حيث لا بدّ للمسافر إليها، أيونانيًّا كان أم أجنبيًّا أن يحصل على تأشيرة دخول تخوّله زيارة المكان المقدّس.

ففي نظر السلطات اليونانيّة والسلطات الدينيّة في الجبل، أنّ آثوس ليس هدفًا سياحيًّا، ولا يدخله للزيارة أو المبيت في واحد من أدياره

=البشريّة، سمّي بالمعلّم الأوّل، من أهمّ مؤلّفاته كتاب ما بعد الطبيعة والسياسة والأخلاق.

العشرين، إلّا أولئك الذين ينشدون العزلة الروحيّة أو التعرُّف على الروحانيّة الرهبانيّة الأرثوذكسيّة أو الفنّ البيزنطيّ، حيث إنّ الجبل يعتبر بحقّ مركز الأرثوذكسيّة الروحيّ الحيّ. لذلك، لا تتجاوز تأشيرات الدخول عدد العشرين يوميًّا للأجانب، وربّما المئة تأشيرة لأهل اليونان. إذ لا بدّ من المحافظة على الحدّ المعقول من الهدوء في هذه البقعة التي لا تتجاوز مساحتها الـ ٣٦٠ كيلومترًا مربّعًا، والتي يقطنها حاليًّا أكثر من ألفَي راهب في عشرين ديرًا، وأقلّ من ألفَي علمانيّ يعملون في الاهتمام بالغابات والخشب وترميم المباني القديمة. وقد خصّصت الأسرة الأوروبيّة موازنة تتجاوز الـ الخمس مئة مليون دولار للإصلاح والترميم، بعد أن تمّ إعلان الجبل المقدّس وأديارِه جزءًا من إرث أوروبّا الحضاريّ. والواقع كما رأينا بأمّ العين أنّ ورشة الإصلاح والترميم والبناء دخلت كلّ دير، بعد أن كانت الأبنية مهدّدة بالسقوط والخراب، من جرّاء قلّة الواردات والمساعدات.

وبعد أن اجتهد الأستاذ الرفيق أمين في الحصول على التأشيرات – وتأشيرة الأميركيّ ثمنها أعلى من ثمن تأشيرة اللبنانيّ «الفقير» على حدّ قول موظّف الجمارك – انطلقنا سريعًا إلى الباخرة – العبّارة التي تقوم برحلة وحيدة يوميًّا بين مرفأَي أورانوبوليس ودفني، وتُقلّ على متنها، على ما شاهدنا، بضع مئات من المسافرين، جلّهم من العمّال والزوّار والتجّار والرهبان، لابسي القنباز الأسود والمعتمري قبّعاتهم البسيطة المميّزة. وإلى هؤلاء الناس، أقلّت الباخرة عددًا من السيّارات والشاحنات ذات الأحجام المختلفة، بعضًا منها يحمّل الموادّ الغذائيّة أو الأدوات والآليّات الضروريّة لسبل العيش هنالك. لا مجال لدخول آثوس إلّا عبر البحر فقط، إذ إنّ لا ممرَّ يصل اليونان بالجبل المقدّس عن طريق البرّ، لكي تتمّ المحافظة على حياة التوحّد والانعزال بوجه تامّ وجذريّ. وتنطلق السفينة في العاشرة صباحًا باتّجاه مرفأ دفني تمخر عباب الأزرق النقيّ، فتختفي وراءنا مدينة أورانوبوليس وبرجها القديم الذي كان تابعًا لدير ڤاتوپايدي من أعمال آثوس، وتزول شيئًا فشيئًا مظاهر المدينة وضواحيها، لتحلّ

مكانها الطبيعة البرّيّة الساكنة المكسوّة بالغابات والأشجار. وما إنْ تقدّمنا بضعة كيلومترات في بحر آثوس حتّى أطلّ علينا الجبلُ الذي أعطى اسمه الجبلَ المقدّس (هاغيون أوروس) كما يسمّيه التقليد منذ القرن العاشر على أقلّ تقدير.

وعلى متن السفينة، التقينا أحد الزوّار اليونانيّين الذي أخذ يشرح لنا موقع جبل آثوس عبر التاريخ وفي واقع الأرثوذكسيّة اليوم: «منذ القرن العاشر تحوّل الجبل إلى منطقة منعزلة لا يقطنها إلّا الرهبان الرجال في أديرتهم وقلّاياتهم ومواقعهم. لا يدخل الجبل إلاّ الرجال الذين تجاوزت أعمارهم الثماني عشرة سنة، والذين يهتمّون بما تمثّله المسيحيّة الأرثوذكسيّة على صعيد الليترجيا والتراث الروحيّ.

«دولة الجبل المقدّس يدير شؤونها مجمع مقدّس تنفيذيّ من أربعة رهبان، ومجمع تشريعيّ من عشرين عضوًا يمثّلون الأديرة العشرين. في هذه الدولة بقيَ التقليد التأمّلي الأرثوذكسيّ حيًّا في الأديرة والمعابد والمناسك، وما يريده سكّان هذه الدولة هو أن يبقى هذا التقليد حيًّا». وعندما عرف مخاطبنا أنّنا نلنا إجازة دخول (Diminitirion) لأربعة أيّام، وهي إجازة تعطي حرّيّة التحرّك والتجوّل، قال لنا: «إنّ أكثريّة الزائرين على متن السفينة بحوزتهم تأشيرات دخول أديرة معيّنة فقط، ولا يستطيعون التنقّل من دير إلى آخر، إذ إنّ لكلّ دير منطقته ولها حدود». ممّا يعني أنّه أراد القول إنّنا محظوظون في أن تكون بحوزتنا تأشيرات تخوّلنا حرّيّة الحركة.

وأضاف محدّثنا قائلًا: «ما تجدر الإشارة إليه هو أنّ الحياة الرهبانيّة في الجبل المقدّس هي على ما يبدو، في حالة ازدهار بعد حالة اندثار أصابتها بعد الحرب العالميّة الثانية وحتّى منتصف السبعينيّات. فسكّان الجبل كانوا قد تجاوزوا العشرين ألفًا في مطلع القرن العشرين، حيث إنّ الدير الروسيّ كان يقطنه ما يقارب الألفَي راهب، إلى أنّ العدد انخفض إلى خمس مئة راهب في نهاية الخمسينيّات، وهو الآن في حالة تصاعديّة،

إذ إنّ عدد الرهبان يقدّر اليوم بما يناهز الألفي راهب في أديار الجبل وملحقاتها كافّة. وذلك يعود إلى النهضة التي شهدتها الكنيسة الأرثوذكسيّة في مختلف أنحاء المعمورة، وهي نهضة تشدّد من ناحية على الوعي الروحيّ والانتماء إلى التراث البيزنطيّ بمختلف أشكاله، ومن أخرى على العودةِ إلى ينابيع الإيمان بالسيّد المسيح القائم من الموت سبيلًا إلى الخلاص».

وبعد ساعة من الزمن، أطلّ علينا جبل آثوس من البعيد شامخًا بكامل هيبته، تكلّل هامته التي تعلو ألفي مترٍ عن سطح البحر غيومٌ بيضٌ دلالة على أنّ الطقس كان جميلًا في ذلك النهار. وفجأة أخذت السفينة تخفّف من سرعتها وتنحرف يسارًا، ففهمنا أنّها ستتوقّف دقائق معدودة على وصيف الشاطئ التابع لدير ذوغراتو في الجبال. والواقع أنّ لكلّ دير من أديار الجبل المقدّس مرفأه وبرجه منذ الأجيال السالفة. وعندما انتقلت الباخرة إلى ميناء آخر وتوقّفت على رصيفه، ظهرت لنا بوجه جليّ معالم دير آخر هو دير كونستامونيتو، وهو إلى جانب دير ذوهاريو غير البعيد عنه، نموذج عمّا تكون عليه أديار آثوس. فالدير تحميه أسوار عالية في الغالب وحصينة قامت بدرء أخطار القراصنة من كلّ حدب وصوب في القرون الوسطى. وتلتصق بالأسوار بطريقة مباشرة أبراج منيعة مهمّتها إرشاد السفن ومراقبة الشاطئ ودقّ جرس الإنذار في حال خطر داهم. وفي الساحة التي تحميها الأسوار أبنية مشتركة للرهبان، منها للسكن والمأكل والمشرب وحفظ المياه المقدّسة والمؤن. وفي هذه الساحة تقع أيضًا الكنيسة الرئيسيّة (الكاثوليكون) ذات القبب المتعدّدة الأحجام التي تحتوي على كنز الدير من الأيقونات والذخائر المقدّسة، والرسم الهندسيّ لكنيسة الآثوسيّة غالبًا ما يكون على شكل صليب. وحول الدير، تبدو المساحات المزروعة بالأشجار المثمرة وخصوصًا الزيتون والخضار، ممّا يسمح بالاكتفاء الذاتيّ في هذا المجال، إلّا أنّ الأديار لا تقوم بتربية الماشية. إذ إنّه كما بالنسبة إلى الإنسان، يُمنع إدخال الإناث من المواشي، وكذلك يُمنع إدخال أو إنتاج الحليب ومشتقّاته أو أيّ مادّة

أخرى تُستخرج من أنثى الحيوان. إنَّ أنثى الحيوان الوحيدة المسموح بها هي البهرّة، وقد اتّخذ القرار بشأن إدخالها منذ بداية القرن العشرين في وقت اجتاحت فيه الأديار موجة عارمة من الجراذين التي انقضّت على الغلال والبساتين فأتت على الأخضر واليابس.

وبعد أن ابتعدنا عن الأديار الأوائل المبنيّة على مقربة من الشاطئ، ظهر لنا تجمّع كبير من المباني التي تتوسّطها كنيسة نمطيّة من الطراز الروسيّ، وقد فهمنا لاحقًا أنّ ذلك التجمّع هو دير القدّيس بنديلمون الذي ينتمي إلى التقليد الأرثوذكسيّ الروسيّ ويأتي إليه الشبّان الروس للترهّب فيه على يد مَن سبقهم من الرهبان ذوي الأصول السلافية. ونصل إلى دفني عند الثانية عشرة ظهرًا بعد ساعتين من الإبحار، وننزل إلى الرصيف مع أمتعتنا ويتوجّه الركّاب إلى سيّارتَي نقل كبيرتَين، واحدة قديمة جدًّا والثانية حديثة بعض الشيء، وقد حُشِر فيهما عددٌ كبير من المسافرين على السفينة التي كان عليها أن تكمل إبحارها جنوبًا لتفريغ حمولتها على أرصفة الأديار الأخرى. وننتقل من الميناء الصغير المكوّن من فندق صغير ومطعم وبضعة محلّات لبيع التذكارات وبعض الموادّ والأدوات الضروريّة ومخازن كبيرة بعض الشيء تابعة للحكومة الآثوسيّة صوب كاريس (Karyès) عاصمة الدولة، لنبدأ زيارتنا بعض الأديرة في الجبل المقدّس. إنّها بداية اكتشاف عالم لا كغيره من العوالم، عالمٍ أقرب إلى القرون الوسطى وحضارتها، وحتّى إلى ما قبل ذلك!

## من كاريس إلى الدير الكبير (Max Lavra)

وصلنا إلى البلدة الصغيرة هذه، التي لا علاقة لها، لا من قريب أو بعيد، بعواصم العالم الحديثة. كاريس، عاصمة الدولة الآثوسيّة، هي كناية عن شارع رئيسيّ بسيط، وعن تجمّع لبضعة أديار ومدارس وبعض محلّات بيع التذكارات والموادّ الضروريّة، وهذه الأخيرة تتمركز في شارع وحيد، اصطفّت على مدخله بعض سيّارات النقل التي تربط الأديرة بعضها ببعضها الآخر، لتسهيل تنقّل العاملين في حقل البناء أو في صناعة

الأخشاب والمزروعات، وكذلك الزائرين الذين لا يودّون السير مشيًا على الأقدام. لقاؤنا الأوّل في الشارع كان بالأب باولو الذي يتحدّث الفرنسيّة بطلاقة، والذي كان يتّكئ على أخ في الرهبانيّة نظرًا إلى تقدّمه في العمر. قَبِل بابتسامة وضيعة أن تؤخذ له صورة فوتوغرافيّة وتمنّى لنا إقامة مفيدة في ربوع جبل آثوس، إذ عَلِمَ أنّنا من الشرق الأدنى. ونخترق الشارع الرئيسيّ متأمّلين الجدران القديمة والقبب العتيقة، حتّى وصلنا إلى دير كوتلوموسّيو (Koutloumossiu)، دير تجلّي المخلِّص، وقد تأسّس في القرن الثامن أو التاسع الميلاديّ على ما تدلّ الدراسات التاريخيّة. وللدير صلات بالكنيسة الأرثوذكسيّة في رومانيا حيث له بعض الأراضي والممتلكات، وقد ترهّب فيه الكثير من الشبّان الرومان على مرّ الأجيال. وعلى جدران الكنيسة الرئيسة (الكاثوليكون) المبنيّة في السنة ١٥٤٠، رسومات حقّقها رسّامو المدرسة الكريتيّة التي تركت آثارًا عديدة في مختلف أديرة الأرخبيل.

وطَفِقنا عائدين إلى ساحة كاريس الرئيسيّة ومنها انطلقت سيّارة الأجرة باتّجاه الدير الأكبر والأعرق في الجبل المقدّس، ألا وهو دير ماكس لافرا الذي احتفل في السنة ١٩٦٣ بعيد تأسيسه الألفيّ. الطرق بين الأديرة لا زالت طرقًا ترابيّة لا تخلو من الوعورة، دلالة على أنّك في بلد الزهد والنسك وأعمال التقشّف، وأنّ على الزائر أن يشارك في هذه الأعمال وأن يلبس لباس الزاهد في أثناء زيارته البلاد. وعندما طلبنا إلى سائق السيّارة اليونانيّ، بما تيسّر لنا من الكلمات اليونانيّة وتيسّر له من الإنكليزيّة، أن يعرّج على دير ڤاتوپايدي الشهير، أجاب بأنّ لا وقت لذلك وبأنّ هذا الدير الاستقراطيّ لا يستقبل الزائرين بسهولة. ونتقدّم شيئًا فشيئًا نحو جنوب الأرخبيل فنستقرّ عند بوّابة دير إيڤيرون الذي أسّسه البارّ يوحنّا تورنيكيوس وراهبان من جورجيا في القرن العاشر، على اسم رقاد العذراء. الكاثوليكون مبنيّ على شكل صليب يونانيّ يحتفظ ببلاط مرصوف من القرن الحادي عشر، وعلى رسومات من القرنَيْن السادس عشر والتاسع عشر، وعلى أيقونة العذراء الكلّيّة القداسة (پاناغيا).

والعذراء مريم أمّ الله هي الامرأة الوحيدة التي لها حضورٌ في جبل آثوس، لا بل إنّها الشفيعة المكرَّمة في كلّ دير من أدياره. ونظرًا إلى أهمّيّة تعدّد أيقونات العذراء مريم، نورد لائحة بأهمّها مع رسوم أوّليّة لها[٥].

---



(٥) لائحة بأسماء الباناغيا مع رسومها.

١ – بلاشيرنيتيسّا: أصل الأيقونة من القسطنطينيّة، حاملة الطفل على الصدر. هي العذراء والعلامة (بحسب أشعيا ٧/١٤).

– بريفوكراتوسّا: العذراء الحاملة الطفل.

٢ – إيلوسّا: العذراء الشفوق.

٣ – غالاكتوتروفوسّا: العذراء المرضعة.

٤ – غليكوفيلوسّا: العذراء التي تقبّل بعذوبة.

٥ – هاغيوسوريتيسّا: العذراء الضارعة، ذات الزنّار المقدّس.

٦ – هوديجيتريا: يعود الأصل بحسب التقليد إلى القدّيس لوقا. تمثّل العذراء القائدة.

٧ – كيريوتيسّا: العذراء الواقفة والطفل أمامها.

ونلج دير إيڤيرون حيث نتظر في ردهة الاستقبال، فيسأل الصديق

٨ً - العذراء صاحبة السلطان وذات الجلالة.

٩ً - العذراء المصلّية.

١٠ً - العذراء المتألّمة.

١١ً - يلاجونيتيسّا: الأصل من منطقة يلاجونيا. الطفل يلهو بين يدي أمّه.

١٢ً - پريبلپتا: العذراء المُدهشة.

١٣ً - پلاتيرا: الأعظم من السماوات.

١٤ً - تريشيروسّا: ذات الأيادي الثلاث.

١٥ً - زودوكوس: الينبوع المعطي مياه الحياة.

أمين عن إرميا، أحد الرهبان قاطني الدير، وهو من الجنسيّة الأستراليّة، وقد اختار التنسّك منذ سنوات في جبل آثوس. ونتوجّه إلى الداخل فنزور الكنيسة وكنز المكتبة الملاصقة لها، ثمّ نعثر، بعد تفتيش، على الراهب إرميا الذي كان منهمكًا مع أقرانٍ في تلميع آنية المذبح الرئيسيّ تحضيرًا لعيد الپاناغيا في الخامس عشر من شهر آب. تأهّل بنا إرميا من دون أن يتوقّف عن عمله وابتسم عندما قلنا له بأنّ صديقه في بيروت يبعث له بالسلام طالبًا إليه الصلاة من أجله. وعندما طلبنا إليه المبيت في إيفيرون، توقّف قليلًا للتفكير ثمّ أجاب بأنّ ذلك ممكن. ولمّا رأى أنّ الرهبان مستمرّون في أعمالهم، أسرع هو أيضًا في إكمال عمله، كما لو أنّه أراد أن يقول لنا إنّ المقابلة انتهت وإنّ علينا تدبير أمرنا لباقي النهار.

ونصعد ثانيةً إلى السيّارة متوجّهين إلى مقصدنا الرئيسيّ، دير لاڤرا[٦]، فنشاهد على طريقنا دير فيلوتيو ثمّ دير كاراكلّلو، يحضنهما سفح جبل آثوس الذي أطلّ علينا فجأة بكامل مهابته وعلوّه الشاهق القريب من البحر. ولا نتأخّر في النزول من السيّارة لمشاهدة قمّة الجبل عن قرب، كما لو أنّ الجبل صار هو أيضًا محجّةً ودير عبادة. كيف لا والمعروف أنّ في مغاور الجبل الكثير من المناسك التي يقطنها بعض الرهبان العبّاد المتوحّدين الذين جعلوا من التقليد تراثًا حيًّا من العبادة والانخطاف في الروح والصلاة المتواصلة.

وبعد أن تابعنا سيرنا على طريقٍ شقّت حديثًا للربط بين أديار جنوبيّ الأرخبيل، شاهدنا فجأة دير ماكس لاڤرا يطلّ علينا في شكل مدينة مسوّرة إلى جانب الشاطئ. «إنّه الأجمل على ما يبدو بين أديار آثوس وقد أسّسه القدّيس أثناسيوس في السنة ٩٦٣، أيّام حكم الأمبراطور نيسيفوروس فوكاس» على ما يقول الكتاب – الدليل الذي بين أيدينا. فهو يبدو كبلدة حصينة تمتدّ أسواره على أكثر من كيلومترين وله ثلاثة أبواب، وتجتازه

---

(٦) في السنة ١٩٦٣، جرت احتفالات مهمّة لمناسبة العيد الألفيّ لهذا الدير الذي تأسّس العام ٩٦٣.

الأزقّة والشوارع، ويحتوي على أكثر من ثلاثين كنيسة منها الكاثوليكون ذات القبب المتعدّدة التي تحمل من الداخل لوحات رسمها الرسّام الشهير تيوفانوس في القرن السادس عشر. في هذا الدير، أمضينا الليلة وشاركنا الرهبان حياتهم الديريّة وصلواتهم، وكذلك مأكلهم في قاعة الطعام التي تزيّنها رسوم حقّقها الفنّانون الكريتيّون في القرن السادس عشر أيضًا. ولا شكّ في أنّ هذه القاعة هي أجمل قاعات دير لاڤرا: فعندما شاركنا الرهبان في طعام المساء والصباح المؤلّف من السمك النيء والحساء المطبوخ بالمياه وبعض الخضار والفاكهة والشاي، لاحظنا على الجدار الرئيسيّ لوحة العشاء السرّيّ، وعلى الجدران الجانبيّة سلسلة من أيقونات القدّيسين كأثناسيوس وغريغوريوس پالماس والقدّيس يوحنّا الإنجيليّ، ومشاهد من مجمع نيقية وحياة العذراء، وعلى مدخل القاعة لوحات الدينونة الأخيرة ومجيء الربّ ومختاري الفردوس وشجرة يسّى. ويلفت انتباهنا وجود صور الفلاسفة اليونانيّين أمثال: فيلون وفيثاغورس وسقراط وأرسطو وأفلاطون وغيرهم، وكأنّ الرهبان، في جزء من مسيرتهم الروحيّة العرفانيّة، هم أصدقاء الحكمة، لا بل من السعاة إليها وإلى الحقيقة. فحضور الفلسفة بينهم هو رمز إلى ذلك السعي، لا بل دعوة إلى التمسّك بالسعي إلى الحقيقة الإلهيّة.

أمّا المبيت في الدير فإنّه نوع من الالتزام بالحياة الديريّة وطقوسها وأوقاتها: ففي المساء وبعد الصلاة نلتقي الرهبان الذين يتحدّثون عن حياتهم والتزاماتهم النسكيّة، ونشعر كم أنّهم يعيشون في العالم ويحملون همومه وهم بعيدون عنه جغرافيًّا. ونسير مع أحدهم حول الدير إلى صومعة قريبة منه ترهّب فيها القدّيس أثناسيوس المؤسّس، ورأى فيها نور الربّ يدعوه إلى الحياة التوحّديّة التأمّليّة. ونتحقّق بالتالي كم أنّ هذه الحياة، بتقاليدها وأزمتها، هي حياة توحّد بالربّ يسوع، وشهادة على حضوره الحيّ في العالم، ودعوة إلى رؤية الأزمنة الجديدة والملكوت الآتي، ملكوت السعادة الأبديّة. فالحياة الديريّة هنا ليست نقيض العالم، بل هي دعوة العالم إلى التخلّي عن زيفه ومظاهره وتعلّقه بالماديّات، لكي ينظر

إلى ما هو جوهريّ وأساسيّ وحقيقيّ، المتمثّل بهذه الحرّيّة العميقة المعاني التي يعيشها المتوحّد في أديار آثوس وتناسكه البسيطة.

وعند الرابعة صباحًا، يتمّ دقّ الناقوس الخشبيّ ليفيق الجميع فيتجمّعوا في بهو الكنيسة للصلاة حتّى السادسة صباحًا موعد تناول الطعام. وبعد أن انتهت المراسم الطقسيّة الصباحيّة، عدنا إلى غرفتنا البسيطة للملمة أغراضنا ولإكمال حجّنا إلى آثوس. ولم ننسَ قبل خروجنا من بيت المنامة أن نقرأ لمرّة أخيرة النظام الداخليّ المثبت على مساحة الباب الداخليّة، وهو قد كتب باللغة الإنكليزيّة:

«إنّ هذا المكان الذي قاد الله خطاك إليه هو مكان مخصّص للعبادة، فلا تدخّن ضمن جدرانه،

وعليك أن تحافظ فيه على اللباس المحتشم حتّى ولو كنت في غرفة المنامة،

وإنّها فرصة وهبك الربّ إيّاها للمشاركة منذ البداية في الخدمة الإلهيّة،

فإذا كنت غير أرثوذكسيّ، فلطفًا امكث في الجزء الخلفيّ للكنيسة بعد الإنجيل المقدّس، ولا تتناول الجسد المقدّس، والقمح المبارك.

لا تترك مالًا في الغرفة، والضيافة لا تتجاوز الأربعَ والعشرين ساعة».

هذا يعني أنّ الأرض التي تسير عليها هي أرض قلب الأرثوذكسيّة الروحيّ، وعليك أن تحترم قواعد التعامل والضيافة كما سنّها رهبان الدير وسلطات الجبل المقدّس.

ونتنقل من دير ماكس لافرا التاريخيّ إلى إيفيرون ثانية، ثمّ نزور دير ستافرونيكيتا القريب منه الذي بني مرّة أولى في القرن الحادي عشر، ثمّ بعد دماره بُنيَ ثانيةً في القرن السادس عشر بهمّة البطريرك المسكونيّ الجالس على كرسيّ القسطنطينيّة والذي تخضع له كلّ أديرة الجبل المقدّس. الكاثوليكون هو شبيه غيره من كنائس الأديار، إلّا أنّ ما يميّزه

هو الرسومات التي رسمها الفنّان تيوفانوس القريطيّ، مؤسّس المدرسة القريطيّة. في هذا الدير، درس المطران جورج أبو زخم، أسقف مدينة حمص الأرثوذكسيّ الحاليّ. ودير ستاڤرونيكيتا يُعدُّ مركزًا مهمًّا للنهضة الروحيّة التي شهدتها وتشهدها أديرة الجبل المقدّس. إلتقينا في هذا الدير الذي يعجّ بالعاملين على ترميمه الراهب يكوڤوس من التابعيّة الفرنسيّة الذي حدّثنا عن النهضة الروحيّة التي يقودها دير ستاڤرونيكيتا: «الحياة الديريّة الأرثوذكسيّة هي في جوهرها تأمّليّة تهدف إلى الاتّحاد بأسمى قِيَم الإنجيل، وبشخص المسيح وعيش القيامة المُسبقة، عبر العبادة والليترجيا المصلّية والإفخارستيّة. والعزلة في هذا الجبل المقدّس، واستثناء الحضور النسائيّ، والانقطاع عن العالم الخارجيّ، وتثبيت استقلاليّة منطقة الجبل المقدّس في شكل دولة لها نظامها الخاصّ ضمن الدولة اليونانيّة، هي أمور أساسيّة لإتاحة المجال لمريدي الحياة النسكيّة في أن يختبروا الاختبار الحرّ، غير المقيّد بأحوال العالم المتقلّبة، حياةَ الوحدة المؤدّية إلى حالة التوحُّد الداخليّ للاتّحاد بالربّ خالق العالمين. حالة العزلة الرهبانيّة والتوحُّد الباطنيّ يقودان المتوحِّد الراهب إلى حالة هي أشبه بحالة الإنسان وقت خُلِقَ على شبه الله ومثاله، بحالة النقاء الأولى، وهي بوجه أكيد حالة الإنسان المنتصر على الموت بقوّة الصليب وقيامته». ويتابع محدّثنا قائلًا: «إنّ عناصر الحياة الروحيّة، أي العزلة والوحدة والصلاة والتقشّف الجسديّ القاسي وتبعيّة كلّ راهب، ضمن حرّيّة روحيّة محدودة، لدير معيّن، هي العناصر الأساسيّة المستمرّة منذ مئات السنين، والنهضة الروحيّة تعيد الاعتبار لهذه العناصر، كونها كانت الأدوات الناجحة الناجعة لاستقامة الحياة الروحيّة».

ونتنقل من هذا الدير إلى العاصمة كاريس مرّة أخرى، فنرتاح قليلًا من غبار الطريق ونستعدّ للانتقال إلى دير آخر، بعد زيارة كنيسة القدّيس أندراوس زيارةً سريعة. وفي كاريس، استقلّينا السيّارة إلى دفني حيث حجزنا الميت في الفندق المتواضع، وتابعنا سيرنا إلى دير سيمونوس بيترا الذي كان حدّثنا عنه بعض العارفين في أمور الجبل المقدّس، كمثال للدير

الشاهد على الحياة الرهبانيّة المتجدّدة. فدير سيمونوس بيترا، العالق بين الأرض والسماء على صخرة جرفٍ يشرف على البحر الأزرق اللازورديّ، أسّسه راهب اسمه سمعان في القرن الرابع عشر. ورؤية الدير من البحر تبيّن للناظر كم أنّ بناءه تطلّب الكثير من الإقدام والشجاعة، وأنّه مؤلّف من ثلاثة أبنية (وتمّ اليوم تشييد بناء رابع لإيواء الحجّاج وإبعادهم عن الرهبان الذين يحتاجون إلى السكينة) وأنّ كلّ بناء مؤلّف من سبعة طوابق. يقطن الدير أو يتبع له مئة وعشرون راهبًا على الأقلّ، ولم يمنعه الحريق الذي أتى على جزء كبير منه في السنة ١٨٩١، ثمّ في السنة ١٩٩٠، من التجدُّد وإعادة بناء ما تهدّم، وتكوين جوقة ترتيل ليترجيّ تعتبر الأهمّ، إلى جانب جوقتي الدير الروسيّ ودير ڤاتوپايدي، بين جوقات أديرة الجبل المقدّس. وبالفعل فإنّ هذا الخورس له تسجيلات ليترجيّة متعدّدة منتشرة في أربعة أقطار المسكونة، وهي تُظهر أنّ التجدُّد لا يطال الحياة الروحيّة وحسب، بل الليترجيا الإنشاديّة البيزنطيّة التي تساهم في نقل المرتّل والمستمع إلى عالم الإلٰهيّات الروحانيّ[٧].

وندخل دير سيمونوس بيترا (أي سمعان الصخرة) فننتظر قليلًا أحد الرهبان، وهو في الأساس طبيب فرنسيّ، علمنا من بيروت أنّه من المترهّبين في هذا الدير. ولم يطل الوقت حتّى أطلّ الراهب مكاريوس بجسمه النحيل وعينيه المتلألئتين وقبّعته البسيطة التي تغطّي الرأس والجبين. بصوت خافت، ألقى السلام ودعانا إلى تناول قليلٍ من الراكي (المرادف للعرق اللبنانيّ) وراحة الحلقوم والقهوة. وعندما علم أنّنا من بيروت ننقل إليه السلام من أحد الكهنة الذين ترهّبوا لسنة واحدة في سيمونوس بيترا، تهلّل وجهه وشعرنا بقربنا إليه، وأخذنا نطرح عليه الأسئلة عن الحياة الرهبانيّة في الجبل المقدّس. قال لنا ردًّا على سؤال: «الصيغة الرهبانيّة المعتمدة اليوم في أديار آثوس هي بالإجمال الحياة

(٧) هذه التراتيل مسجّلة على أقراصٍ مضغوطة وكاسيّات، وهي متوافرة في بعض المكتبات الدينيّة في أثينا، ولا شكّ في أنّ المستمع المتذوّق العارف بالإنشاد البيزنطيّ يستحسن سماعها.

الجماعيّة. يجب ألّا نتوقّف كثيرًا على ما تقوله بعض الكتب في وصف أديار آثوس من أنّ بعضها يتّبع الصيغة الإفراديّة، بحيث إنّ كلّ راهب ينظّم حياته كما يشاء، وأنّ بعضها الآخر يتّبع الصيغة الجماعيّة التي ينتظم جميع الرهبان تحت لوائها. الواقع أنّ الحياة الديريّة هي في الأساس حياة ديريّة وأنّ الراهب قد يختار، بالتوافق مع رئيسه، الحياة في دير صغير تعيش فيه جماعة صغيرة مكوّنة من ثلاثة أو أربعة أو خمسة أشخاص. بعض الرهبان هم نسّاك في الجبل، متوحّدون، وهذا جزء من الحياة الرهبانيّة. لذلك، إلى جانب الأديرة الرئيسيّة العشرين في الجبل المقدّس، تنتشر العشرات من تجمّعات الأديرة الصغيرة (سقيتي نسبة إلى الإسقيط في مصر[٨]) التي تأوي الكثير من الرهبان الذين يؤلّفون جماعات مصلّية، وهم يعملون غالبًا، في الزراعة أو في رسم الأيقونات أو صنع المسابح. فالراهب، أينما كان، يعيش يومه في ثلاث حلقات: الحلقة الأولى هي للصلاة وهي من ثماني ساعات، منها ما هو مكرّس للصلاة الجماعيّة ومنها ما هو مخصّص للصلاة العقليّة التأمّليّة الإفراديّة؛ والحلقة الثانية هي العمل من أجل العيش وهي من ثماني ساعات أيضًا؛ والحلقة الثالثة هي من ثماني ساعات أيضًا ومن حصّة النوم والإخلاد للراحة، بالرغم من أنّ بعض الرهبان ليسوا بحاجة إلى كلّ هذا الوقت للراحة. والإسقيط مؤلّف من ثمانية أو عشرة منازل (كالياي باليونانيّة). في كلّ منزل أربع أو خمس غرف وكنيسة عبادة، وللمنزل رئيس يستطيع أن يقبل عنده المبتدئين. والرئيس هو الأب الروحيّ للجماعة، يدير شؤونها المادّيّة والروحيّة وله أن يقدّر مسيرة كلّ واحد من الرهبان بوجه إفراديّ، ولذلك قيل إنّ إحدى صيغتَي الحياة الرهبانيّة هي الصيغة الإفراديّة (Idiorythmique). والواقع أنّ ساكني المنازل يلتقون يوم الأحد في كنيسة رئيسيّة للاحتفال بالليترجيا الإفخارستيّة، وقد يلتقون أيضًا حول مائدة واحدة».

---

(٨) هي منطقة وادي النطرون القبطيّة حاليًا وفيها دير السريان، ودير الأنبا بيشوي ودير الأنبا مقار ودير البراموس. وأن يطلق على تجمّع الأديار اسم إسقيط في جبل آثوس فذلك يعبّر عن العلاقات التي نُسجت دومًا بين معتقي الحياة الرهبانيّة.

وبشأن الطرق الأخرى للحياة الرهبانيّة، يقول محدّثنا الراهب مكاريوس: «إنّ بعض الرهبان يعيشون حياة نسكيّة في القلالي التي غالبًا ما تحوطها الأراضي الزراعيّة أو المنشآت الخاصّة بصيد الأسماك. أمّا النسّاك المتوحّدون فهم يعيشون في بيوت خاصّة (Katismata) أو في المغاور وشقوق الصخور، وهذه صيغةٌ تتطلّب التقشّف الشديد والقدرة على تحمّل الأصوام الكثيرة والعزلة التامّة عن البشر».

## الروحانيّة النسكيّة، السكينة من أجل الواحد الأحد

ويتابع محدّثنا قائلًا: «أمّا ما يقصده المتوحّد، في أيّ صيغة من هذه الصيغ فهو السكينة، أي السلام الداخليّ أو الهدوء الباطنيّ أو حالة اللانفعال إزاء الأحداث الخارجيّة.

«هذه السكينة (Hésychia) هي السكينة الجسديّة أوّلًا، وهي جوهريًّا حالة الانفصال عن العالم وبخاصّة عن الأهواء العالميّة، وقد تكلّم عليها الكثير من الآباء الروحيّين، أوّلهم إسحٰق النينويّ (في القرن السابع). فالأهواء هي في الإنسان، وللانقطاع عن العالم والأهواء لا بدّ من الانفصال عن الناس. الراهب ينقطع عن الناس وعن العالم، إلّا أنّ الناسك من شأنه أن يقوم بذلك جذريًّا فيعيش متوحّدًا متقشّفًا زاهدًا لكي ينسى جسده. والسكينة هي أيضًا السكينة النفسيّة الباطنيّة وهي في صلب الروحانيّة الشرقيّة، وقد أعاد إليها القدّيس غريغوريوس پالاماس الاعتبار في القرن الرابع عشر. إنّها صفاء النفس ونقاوتها والصلاة المستديمة والاتّحاد بالمسيح. في الدير الآثوسيّ، لا ننشغل بالأمور العقليّة أو العقائديّة أو الفكريّة إلّا قليلًا، لأنّ ما نبغيه هو هذه السكينة وصفاء النفس للاتّحاد روحيًّا بالمسيح، كي نكون رسوليّين عبر دعوتنا هذه، وذلك ما نسعى إليه، لأنّ الروح القدس هو الشاهد على ما يقوم به الراهب من أعمال مختلفة، أروحيّةً كانت أم ماديّة. الراهب في الجبل المقدّس يحمل في قلبه وكيانه الرغبة في أن يكون متجلّيًا في تجلّي الربّ».

وبعد أن سمح لنا الأب مكاريوس بأن تُلتقط لنا الصورة التذكاريّة

معه، بالرغم من أنّ ذلك ليس محبّذًا في آثوس، غادرنا دير سيمونوس پيترا من دون أن ننسى المرور بكنيسة الدير للصلاة وإضاءة الشموع. حملنا كلمات الأب مكاريوس ومشاهد البحر الأزرق التي انطبعت في ذاكرتنا من شرفة الطابق الخامس، وقرّرنا السير على أقدامنا باتّجاه دير القدّيس بندليمون، عبر الطريق الترابيّة والأحراج.

وفي الطريق، شاهدنا أحد الرهبان يحمل حوائجه على ظهره وبين يديه، فتذكّرت أنّه قد يكون من جماعة الرهبان الدوّارين الذين اختاروا عدم الاستقرار ونمط الانتقال من دير إلى آخر بصورة مستمرّة، وهم إنّما يقومون بذلك عملًا بقول السيّد المسيح: «إنّه لم يكن له وسادة يضع عليها رأسه»، وهم كذلك مثال الفقير الذي يشحذ كسرة الخبز ليأكل.

## في دير القدّيس بندليمون

بعد ساعة من السير وصلنا إلى محيط الدير الروسيّ، وقد تفاجأنا بعدد الأبنية الخَرِبة أو التي التهمها الحريق. إلّا أنّ ما يلفت النظر أيضًا هو اتّساع أعمال الترميم في أبنية أخرى من مجمّع الدير، وذلك يعود إلى أنّ التحوّلات في روسيا منذ عشر سنوات دفعت العديد من الشبّان الروس والسلافيّين إلى الالتحاق بالحياة الرهبانيّة. وفي الواقع قال لنا أحد الرهبان إنّ الحقبة الحاليّة من حياة الدير هي حقبة نهضة روحيّة وتجدّد واستقبال لعدد من الشبّان الذين ينشدون السكينة والانقطاع عن العالم.

ونصعد الدرجات إلى الكنيسة فنرى أكبر جرس بين أجراس أديار الجبل المقدّس، لا بل واحدًا من أكبر الأجراس في العالم، إذ يزن ثلاثة عشر طنًّا بقطر يبلغ ثمانية أمتار وسبعين سنتيمترًا. أمّا ما يُشنِّف الآذان ويسحر الأذهان دخول الكنيسة فهو عظمة الإنشاد الليترجيّ الروسيّ الذي سمّرنا في أمكنتنا بين الصلبان والأيقونات طوال ساعتين من الوقت، شاركنا فيها روحيًّا الخورس الذي كان يرتّل صلاة المساء.

وقفلنا عائدين على الطريق نفسها نحو مرفأ دفني مرورًا بدير كوتلوموسيو للخلود إلى السكينة والراحة في غرف الفندق المتواضعة.

وفي اليوم التالي، عند الساعة الثانية عشرة كنّا متأهّبين للصعود إلى السفينة التي أقلّتنا هذه المرّة في رحلة العودة إلى مرفأ أورانوبوليس، حاملين معنا ذكريات لا تنسى من سياحتنا الروحيّة في الجبل المقدّس. تقوم الباخرة - العبّارة بالمهمّة نفسها بين دير وآخر، تُنزِل ركّابًا وتستقبل جُددًا من الرهبان والعلمانيّين الزائرين والعاملين في الجبل، وقد زادت هذه المرّة حمولتها من السيّارات المتوسّطة والكبيرة المحمّلة بالأخشاب من أحجام مختلفة ومن المنتوجات المحلّيّة. وفي أثناء الرحلة، رافقتنا طيور القَطْرُس البيض التي تسعى إلى المأكل من أيدي المسافرين.

ومن تسالونيكي ذهبنا في اليوم التالي غربًا إلى منطقة أخرى شهيرة بأديارها المعلّقة على رؤوس قمم جبال بركانيّة قديمة في وسط اليونان هي منطقة متيورا. وفي الطريق توقّفنا لرؤية آثار فرجين الملكيّة وخصوصًا مدفن الملك فيليب الثاني، والد الإسكندر المقدونيّ الكبير الذي مات مقتولًا في القرن الرابع قبل المسيح. وبعد أن شاهدنا أعالي جبال الأولمب التي تقطنها آلهة الأولمب المتعدّدة مثل: زوس وهيرا وبوزايدن وأبولون وأفروديت وأرتيميس... وكانت في ذلك الوقت في حالة عاصفة بعض الشيء. وقصدنا المنطقة الشهيرة بمعابدها اليونانيّة والرومانيّة، حيث شاهدنا قصر ديونيزوس والمسرح الرومانيّ والمتحف الذي يحتوي على أرغن موسيقى يتمّ تشغيله بقوّة الماء، وهو من القرن الثاني قبل المسيح.

وبعد أن طوينا صفحة الآثار الوثنيّة، وصلنا سريعًا إلى بلدة كلمبكا التي تُعتبر القاعدة اللوجستيّة للسيّاح في منطقة متيورا. ما يلفت النظر عند الوصول إلى بوّابة كلمبكا هو تلك الصخور الجسيمة السود وكأنّها نيازك ضخمة قد سقطت من السماء لتُزرَع في الأرض زرعًا. إنّها صخور تداخلتها المعادن بوجه أساسيّ، فبانت كأنّها الأصابع الماردة التي قصد رؤوسها النسّاك والعبّاد المسيحيّون ليبنوا عليها مناسكهم بعيدًا عن ضجيج الناس وضوضاء المدينة، كما فعل النسّاك في جبل آثوس. إلاّ أنّ الحركة السياحيّة منذ بداية السبعينيّات، وجدت في الأديار المبنيّة على رؤوس

الأصابع ضالّتها الفريدة، فأصبحت منطقة متيورا محطّة رئيسيّة للسيّاح يقصدونها من أثينا مرورًا بمدينة دلفي وهياكلها الوثنيّة.

إشتهرت منطقة متيورا منذ القرن الرابع بعد المسيح مقرًّا للكثير من الذين أرادوا الانعزال والترهُّب. فأتوا إليها ليسكنوا في مغاورها والمغاور، وعلى رؤوس صخورها الماردة، وكأنّهم ورثة العموديّين الذين كانوا يمضون حياتهم على رأس العمود هربًا من البشر. وكان الرهبان القاطنون يلتقون للصلاة الجماعيّة والعبادة وإقامة الإفخارستيّا والاسترشاد المتبادل حتّى القرن الرابع عشر، الذي شهد بداية بناء الأديار فوق تلك القمم العالية التي لا يصل إليها البشر إلاّ بمشقّة كبيرة. ولا شكّ في أنّ بناء الأديار تطلّب الكثير من التضحيات وكأنّه عمل تقشّفيّ بحدّ ذاته، إذ إنّ الناظر اليوم إلى الأديار المعلّقة بين الأرض والسماء لا بدّ له أن يقول في نفسه: لو لم يكن الربّ معهم، لما استطاع البنّاء أن يبني البيت.

وفي منطقة الأديار المعلّقة، وكلّ ديرٍ منها يقارع الآخر بمساحته الواسعة وطوابقه المتعدّدة، أحصينا سبعة أديار لها مكانتها ودورها التاريخيّ في الحياة الرهبانيّة:

- دير الروسانو القابع على إحدى الأصابع تأسّس في السنة ١٥٤٥م على يد الأخوة يوحنّا ومكسيموس ويواصاف وقد وضعوا الحياة الجماعيّة فوق كلّ اعتبار، إذ سنّوا لها نظامًا صارمًا يحدُّ من أيّ تعبير عن «الأنا»، وهي المكان الذي يستطيع الشرّير أن يتغلغل فيه أكثر من أيّ مكان آخر. وفي الدير اليوم، راهبتان تحاولان تجديد الحياة الرهبانيّة النسائيّة فيه. وما تجدر الإشارة إليه أنّ بين أديرة متيورا، خصّص ديران للراهبات والخمسة الباقية هي للرجال.

- دير هاغيا تریاس (الثالوث المقدّس) يقوم على إحدى القِمم الواسعة بعض الشيء، إلاّ أنّ الوصول إليه كباقي الأديرة، لم يكن يتمّ إلاّ بالحبال والقفف، واليوم يمكن الوصول إليه عن طريق القطار السلكيّ المعلّق. وإذ لا نعرف أسماء مؤسّسيه، نستطيع تحديد بنائه بين نهاية القرن

الثالث عشر وبداية الرابع عشر. وزيارة الدير ممكنة عبر مئة وأربعين من الدرجات تصل مباشرة إلى كنيسة القدّيس يوحنّا المعمدان التي تحمل على جدرانها الرسوم من القرن السابع عشر. والحياة الرهبانيّة حيّة فيه، إذ يسكن الدير عشرة رهبان.

– دير هاغيوس ستيفانوس تقطنه الراهبات، وهو إلى حدّ ما لم يبنَ على رأس إصبع بين الأرض والسماء، بل على صخرة كبيرة مشرفة على بلدة كلمبكا ترتبط بالجبل بواسطة جسرٍ حديث. شُيِّد الدير في القرن الثاني عشر، وكان يحمل اسم الدير الملوكيّ، إذ إنّ ملوك اليونان كانوا يخصّونه دومًا بالأيقونات الثمينة والهدايا القيّمة، وقد بقي منها حاجز الأيقونات الخشبيّ الصنع والمرصّع بالذهب الخالص في كنيسة القدّيس إسطفانوس المزيّنة بالرسومات المحقّقة في القرن السابع عشر، وقد تضرّرت كثيرًا بفعل القصف إبّان الحرب العالميّة الثانية.

– أمّا دير فارلام، وهو الدير الأوّل الذي بُنِيَ في متيورا، فهو عظيم في بنائه وهندسته. الوصول إليه يتمّ عبر سلّم خديث العهد من ١٩٥ درجة حُفر في الصخر. الكاثوليكون يحمل على جدرانه مجموعة فريدة من الرسوم التي حقّقها المعلّم كاستيللانوس بتأثير من المدرسة القريتيّة والإيطاليّة على حدّ سواء. أمّا الكنيسة الأخرى، التي تحمل اسم «المسلّطين الثلاثة» فهي الأولى التي شيِّدت في متيورا.

– دير متيورا الكبير بناه القدّيس أثناسيوس في القرن الرابع عشر وقد وصل عدد رهبانه في مرحلة معيّنة من القرن السادس عشر إلى أكثر من ثلاث مئة راهب، في حين أنّ عشرة رهبانٍ اليومَ يهتمّون بإدارته. وقد علمنا من أحد الرهبان أنّ لأديرة متيورا أديرة تابعة لها في جبل آثوس، وغالبًا ما يختار الرهبان الرحيل إلى هنالك هربًا من مدّ السائحين، ويبقى في أديرة المتيورا قلّة من الرهبان لكي يهتمّوا بأمرها. ونظرًا إلى أنّ دخولَ أديرة المتيورا ليس مجّانيًا، فإنّ المداخيل توظّف في تمويل أديرة آثوس التي لا مداخيل لها إلّا القليل. وبعد تسلّق السلّم المؤلّف من ١٤٦ درجة، نصل إلى الكاثوليكون الذي بُنِيَ في السنة ١٣٨٨، وقد زيّن جدرانه

بالرسوم تلامذة تابعون لمدرسة تاوفانيوس القريتيّ.

– أمّا دير هيبانتي (تقدمة المسيح إلى الهيكل) الواقع إلى يسار دير متيورا الكبير، فقد أسّسه الراهب نيلوس في نهاية القرن الرابع عشر على إصبع من أصابع المتيورا، إلّا أنّه اليوم في حالة خراب بعد أن شهد مرحلة طويلة من الازدهار حتّى نهاية القرن الثامن عشر.

– ونختم زيارتنا أديرة متيورا بدير هاغيوس نيكولاوس أنابوساس الذي يتميّز بعلوّه الشاهق، وكذلك بالرسوم التي حقّقتها يد المعلّم تاوفانيوس القريتيّ، وهي الوحيدة التي تحمل توقيع المعلّم في اليونان كلّها. في هذا الدير، لاحظنا وجود رسم لرقاد القدّيس أفرام السريانيّ.

وبعد زيارتنا أديرة متيورا التي غصّت طرقاتها بالسيّاح الآتين من كلّ حدب وصوب، يبدّد أسس الحياة الرهبانيّة، انتقلنا في اليوم التالي إلى بلدة دلفي لزيارة هيكلها ومعابدها ومتحفها، وقد دام عزُّ دلفي لأكثر من ألف سنة (من العام ١٠٠٠ قبل المسيح إلى القرن الأوّل بعد المسيح)، حيث كانت العرّافة تقوم بالتنبّؤ بمستقبل الناس العاديّين وكذلك الملوك والأباطرة. ومن بلدة دلفي، علمنا بوجود دير أرثوذكسيّ له تاريخه وموقعه المميّزان، هو دير هوسيوس لوكاس.

## دير هوسيوس لوكاس، رمز الفنّ البيزنطيّ الباقي

في قلب الطبيعة اليونانيّة الخلّابة في جبل هيليكون، يقع دير القدّيس هوسيوس لوكاس على بعد ١٧٠ كيلومترًا من مدينة أثينا. بنى الدير القدّيس لوكاس في السنة ٩٣٧ (وهو غير لوقا الإنجيليّ)، فشيّد أوّلًا كنيسة القدّيسة بربارة ثمّ كنيسة العذراء في منتصف القرن العاشر. وبعد وفاته ازدهرت الجماعة الرهبانيّة الديريّة، وانتشر اسم القدّيس لوكاس في المنطقة كلّها، ممّا دفع الرهبان إلى تشييد كنيسة على اسمه، وهي الكنيسة الرئيسيّة في الدير وقد تمّ بناؤها في بداية القرن الحادي عشر. وممّا تتميّز به هذه الكنيسة عن سواها كثرة الرسوم الجداريّة بالموزاييك والمرصّعة

بالذهب، وهي تذكّر بعظمة الفنّ البيزنطيّ الذي كان سائدًا في القسطنطينيّة وكنائسها. فمن الرسوم المهمّة، وجه المسيح القويّ وهو يحمل بيديه إنجيلًا مفتوحًا، ولوحة الصلب التي تجمع المسيح يسوع وأمّه مريم والتلميذ يوحنّا في إطار جوّ مفعم بالحزن والألم. ولا ننسى التوقّف على لوحة غسل الأرجل، وفيها وجه بطرس المقاوم لما يقوم به يسوع، وكذلك نتوقّف على نزول يسوع إلى الجحيم بعد قيامته. ونشاهد أيضًا موزاييك توما الشكّاك في حين أنّ المسيح الضابط الكلّ مقيم في سقف القبّة الرئيسيّة (وهي لوحة جديدة بعد أن خُرّبت الأساسيّة في هزّة أرضيّة) وكأنّه ضابط برنامج مئات الأيقونات المحقّقة في الكنيسة.

والواقع أنّ ما نراه في كنيسة القدّيس لوكاس من عجائب الأيقونات إنّما هو جزء من «النهضة الفنّيّة المقدونيّة» التي أتت بعد أزمة الأيقونات في القرن الثامن، وهو تعبير حسّيّ رفيع ونادر عن العصر الذهبيّ الثاني في الفنّ البيزنطيّ، في حين أنّ الأوّل كان أيّام يوستينيانوس الإمبراطور في القرن السادس. والواقع أيضًا أنّ ما كان محقّقًا من لوحات ورسوم في كنيسة أيا صوفيا في القسطنطينيّة من العصر الثاني، وهو شبيه ما نراه في هوسيوس لوكاس. فالأشخاص يلتحفون الأقمشة، والوجوه لها ميزاتها وخصائصها، والألوان متناسقة بهيّة، كلّ ذلك هو من خصائص العصر الذهبيّ الثاني في الفنّ البيزنطيّ. وإذا كانت الوجوه واجمة بعض الشيء في هوسيوس لوكاس، فمردّ ذلك إلى تأثير الطبيعة الرهبانيّة الصرف في الفنّ.

ونتنقل بعد زيارتنا هذا الدير البديع بجمالات لوحاته وغناها الروحيّ إلى المدينة العاصمة، إلى أثينا الغنيّة هي الأخرى بتراثها وحضارتها. إلاّ أنّ ما بقي في الأذهان والوجدان هو تلك القوّة الروحيّة التي تزخر بها أديرة اليونان، لما تحمل من إيمان وتعبّد ونقاء وصفاء. إنّها استمرار لنقاء الإنجيل وصفائه.

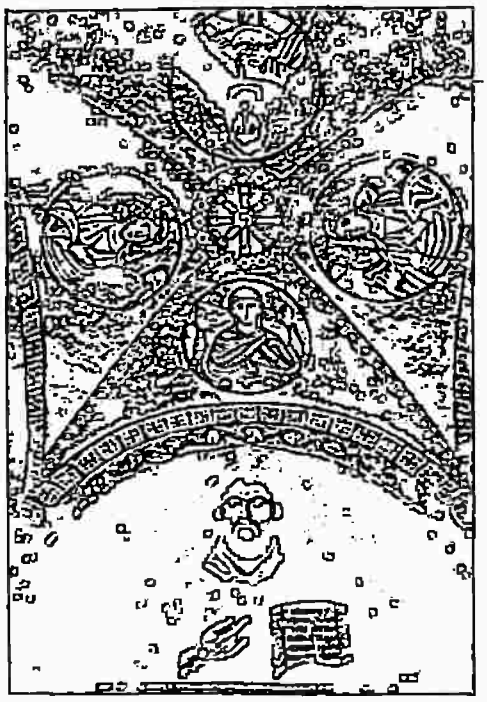

السيّد المسيح الضابط الكلّ، العذراء مريم والقدّيس يوحنّا الإنجيليّ في قبّة كنيسة دوسيوس لوكاس.

مناسك في صخور متيورا.

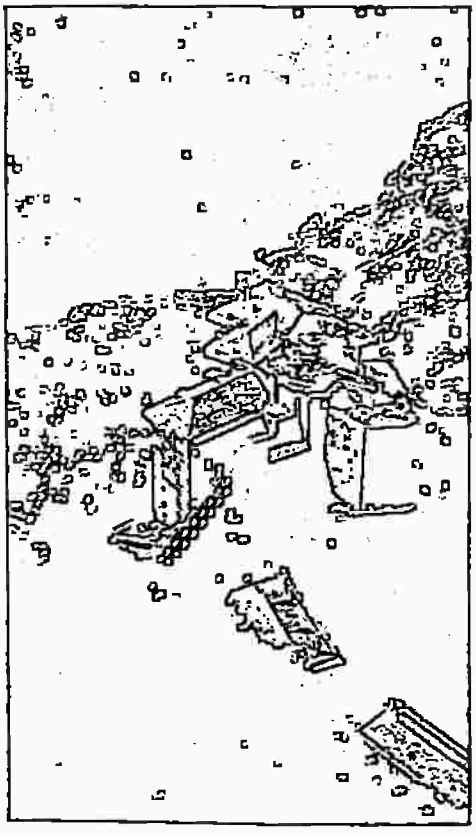

دير سيمونوس بيترا في آثوس.

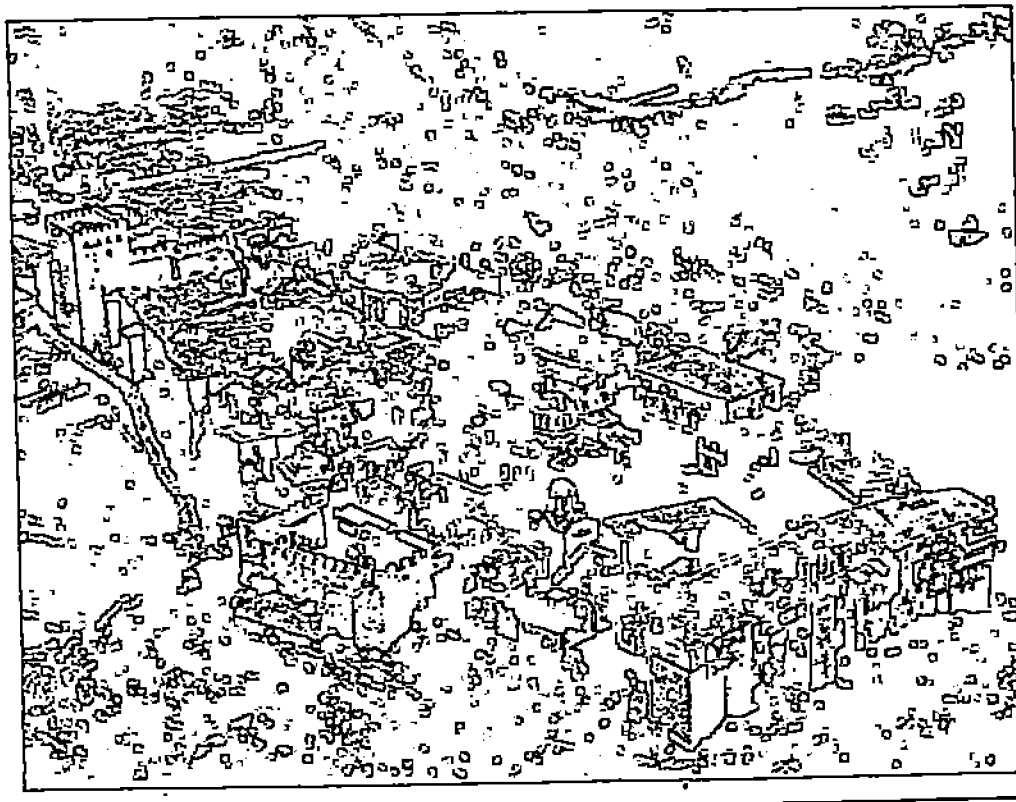

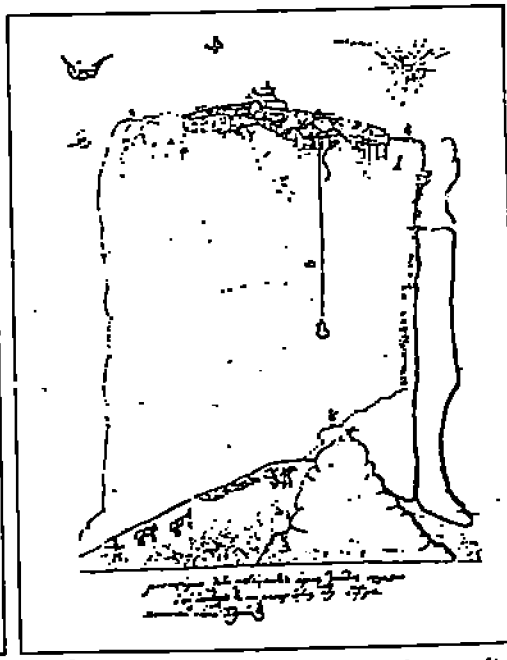

الصعود إلى دير الثالوث المقدّس... بالقفّة.

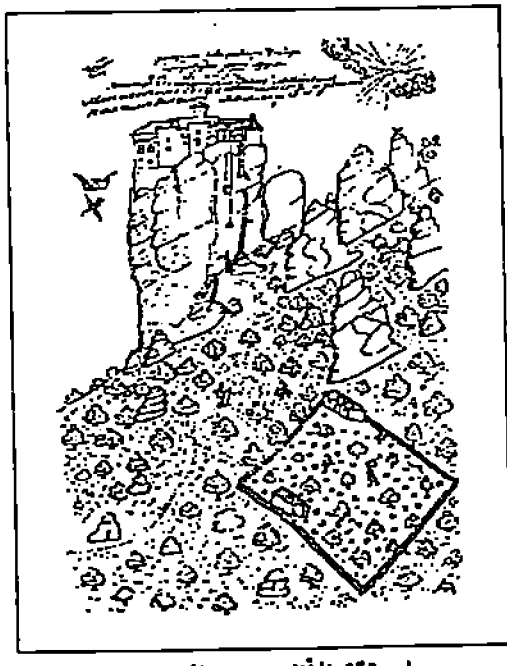

على قمّة الأنف، دير الروسانو.

رقاد القدّيس أفرام في متيورا (من السنة ١٦٣٧).

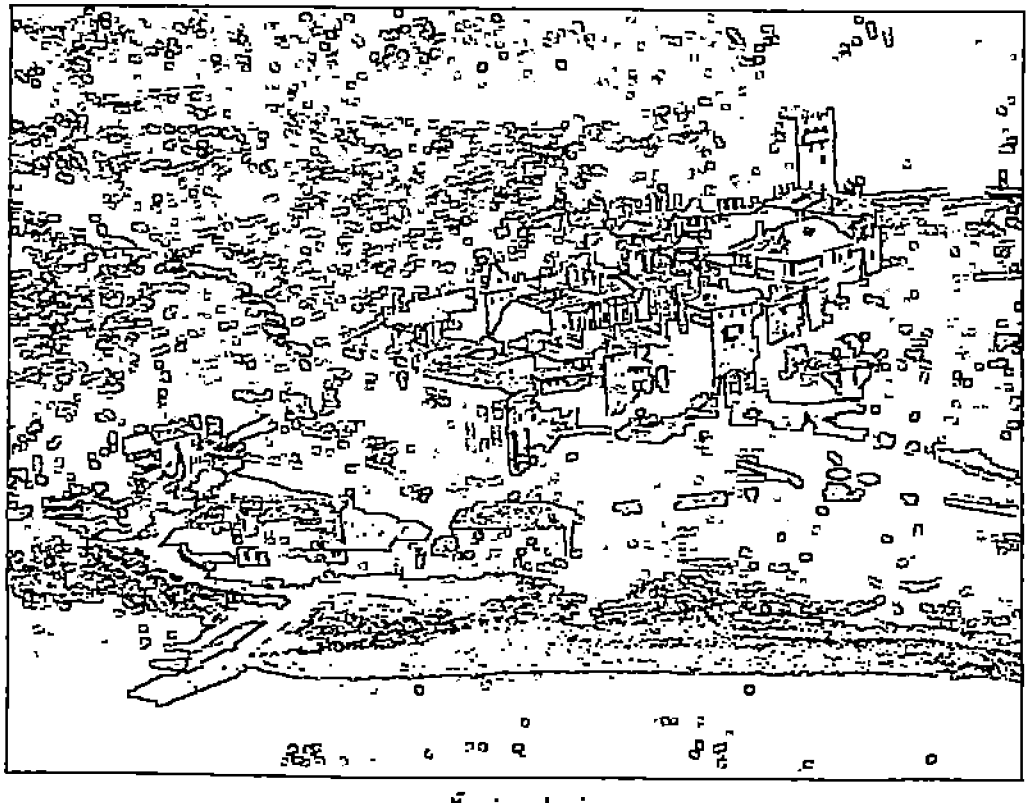

دير ذوهاريو في آثوس.

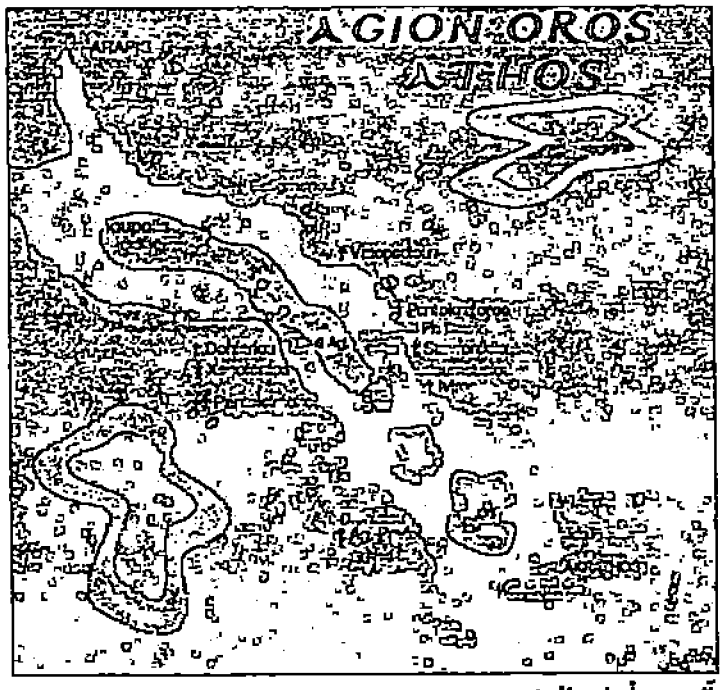


خريطة آثوس وأديارة العشرين.

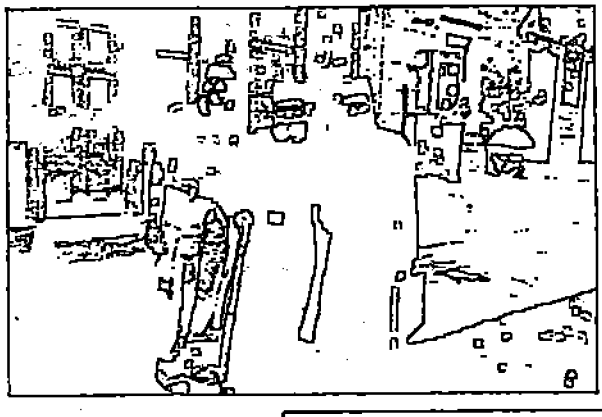

الأستاذ أمين خوري إلى جانب الأنبا باولو – الشارع الرئيسيّ في كاريس.

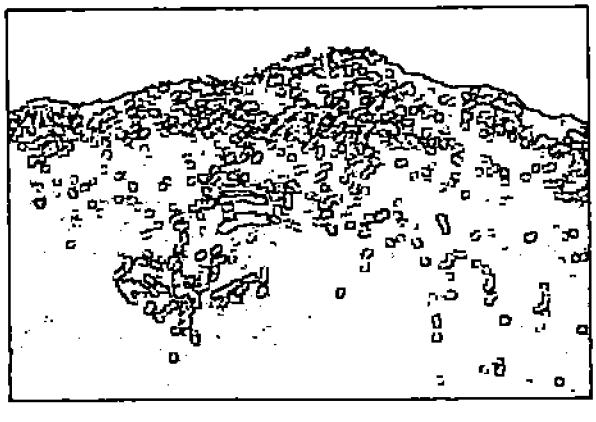

دير القدّيس نيكولاوس – متيورا.

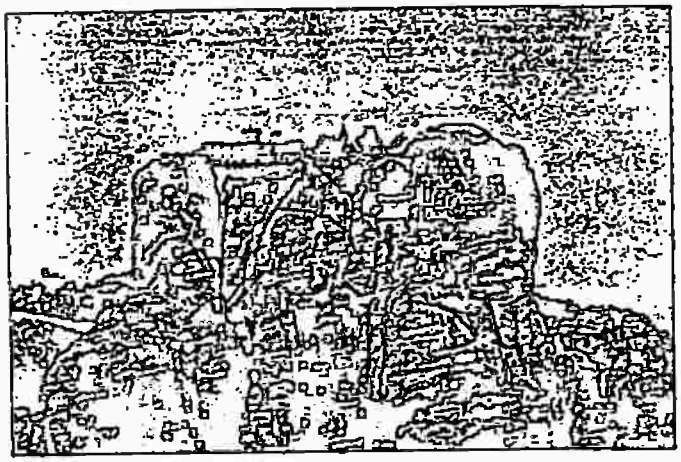

دير الثالوث
المقدّس على
صخور متيورا.

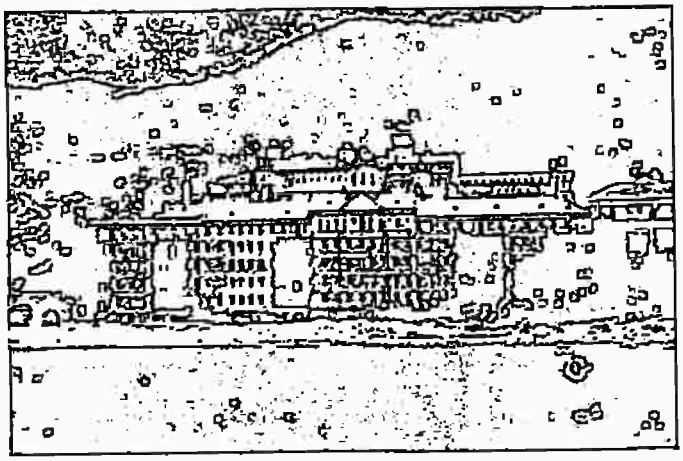

دير القدّيس
بنتليمون
الروسيّ على
شاطئ آثوس.

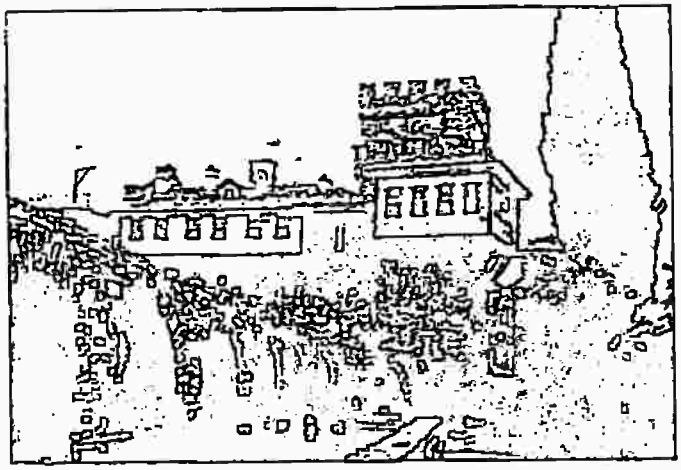

جانب من
دير ماكس
لافرا - آثوس.

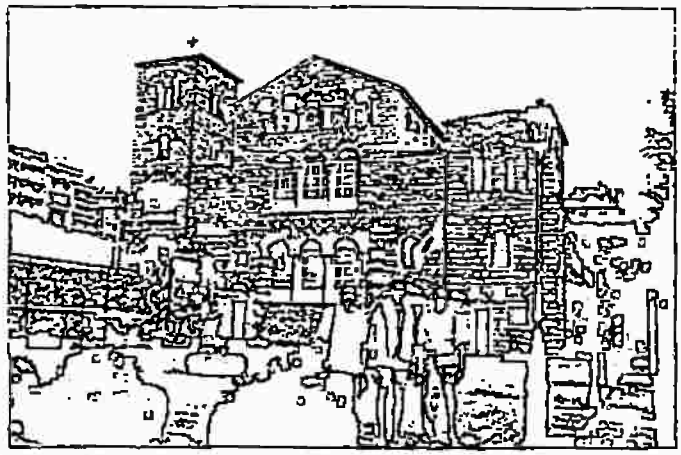

واجهة كنيسة القدّيس ديمتريوس - تسالونيكي.

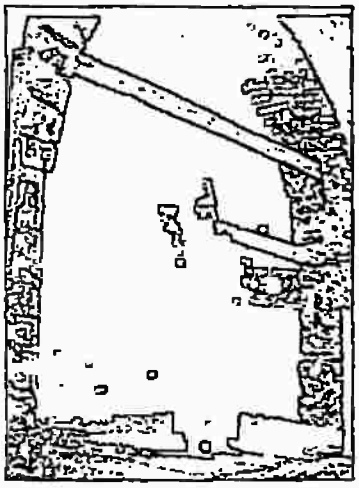

قرع الجرس، دعوة إلى الصلاة.

كاتب المقال إلى جانب الأب مكاريوس في دير سيمونوس بيترا - آثوس.

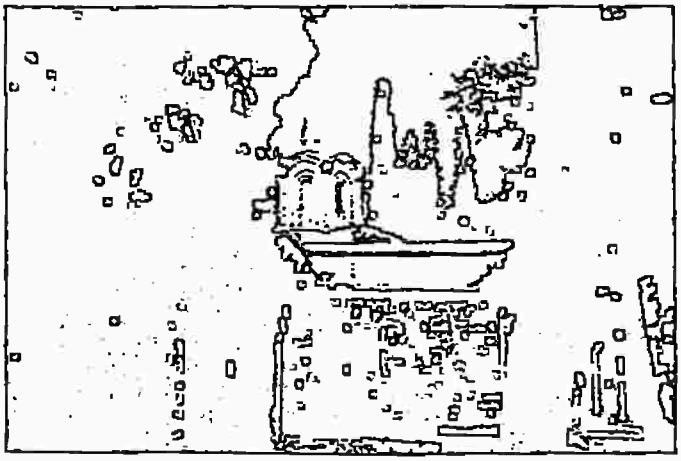

مدخل كنيسة القدّيس بولس - تسالونيكي.

## من منشورات دار المشرق